من كتب الشرق والغرب

شارلوت برونتى وقصة «شيرلى»

[هذا المقال كتب خاصة للمجلة ، كتبه الأستاذ بونامى دوبريه من أكبر الادباء الناقدين فى انجلترا ، وقد شغل منصب أستاذ الآداب الانجليزية عدة سنوات بجامعة فؤاد الأول فى عهدها الزاهر .]

يظهر الكتاب المخلصون لفنهم — وشارلوت برونتى كانت مخلصة فى كل عرق من جسدها — فيما يخلقونه من أشخاص خياليين ، تلك الصفة فى بنى البشر التى يعجبون بها أكثر من غيرها من الصفات أو التى يظنون أنها أهم الصفات . لذلك نجد فى قصص شارلوت برونتى شخصاً أو أكثر من الأشخاص فيه من صفة الاحتمال مايكاد يزيد عن مقدور البشر ، وعادة يكون هذا الاحتمال من النوع الصامت ؛ فهم يستطيعون أن يثبتوا لأشد المصائب مرارة دون أن يتململوا ، إذ يندمجون فيما لهم من فلسفة قاتمة . ونرى مثلا لذلك فى جين إير فى القصة التى تحمل هذا الاسم ، ولوسى ستو فى قصة « ڤيليت » . على أن الكتاب الذين ارتبطوا إلى عجلة الحياة لسبب ما ارتباطاً لا يسعهم معه أن يفصلوا بين فنهم وبين تجاربهم ، لا يستطيعون إلا أن يرددوا لحنا واحداً ؛ لذلك نرى أن شارلوت برونتى (وأختها آن كذلك) تكرر دائما قصة المربية المهملة ، أو كما سميت فكرة قصة سندريلا وذلك ما نلاحظه فى «جين إير» و«ڤيليت» ، وفى هذين الكتابين فضلا عن ذلك نجد صفة أخرى من صفات الكتاب الذين لم يروا إلا القليل من التيارات الأساسية فى الحياة شأن آل برونتى . وأقصد بذلك ابتعاد القصة عما يشغل الانسانية بوجه عام ، عن مصالحها ومصادماتها الدنيوية . والسير فى هذا الابتعاد قد يبلغ مدى بعيداً ، فيصير كأنه منظار نستبين به الحقيقة كما فى رواية «مرتفعات وذرنج» لاميلى برونتى . ولكن الأمر يحتاج إلى فن كبير يبلغ مبلغ فن إميلى برونتى حتى يمكن بناء عالم صلب ومفهوم من مجرد اندفاع العاطفة حيث نجد الحياة الجسمانية إنما هى إلا رمز للحياة النفسية ، وليس الجسد إلا غلافا زائلا للروح . ولم تقارب شارلوت هذا المستوى إلا فى قصة «ڤيليت» . على أن هذا الكتاب يحتوى على الكثير مما تنطوى عليه نفسها الدنيوية ، والكثير من الخيال البعيد الذى حاولت به أن تعوض عن الحياة التى جعلت منها سندريلا قلقة لا تقهر وظلت كذلك إلى نهاية حياتها تقريباً .

إن قصة الأخوات برونتى هى من أكبر القصص المؤثرة فى العالم ، وهى تحتوى فوق ذلك على آلام المأساة كما أنها تحمل معها الشعور الحقيقى فى المآسى : وهو أن شيئاً عظيما تغلب عليه شىء شرير أو بليد أو غير صالح . ولكننا نريد أن نتكلم هنا عن كتب شارلوت ولا نريد أن نتعرض لقصتها إلا بقدر ما تلقى ضوءا على كتبها لاسيما قصة «شيرلى» التى تختلف بعض الاختلاف عن كتابيها العظيمين (إما قصة «الأستاذ» فانها لم تبلغ هذه المرتبة) . فما يسترعى الأنظار أولا فى

هذه القصة أنها القصة الوحيدة التى لم تكتبها شارلوت برونتى بضمير المتكلم، وكأنها تضع كتابا فى ترجمة حياتها، وهذا مما يجعل فارقا بين المؤلف والقصة ويجعل موضوعها أكثر اتساعا . لذلك نجد فى شيرلى اتصالا مع عالم الأعمال الخارجى، وهذا الاتصال معدوم أو يكاد يكون معدوما فى بقية كتبها حيث نجد مظاهر النشاط الأخرى أو طرق الحياة والعاطفة قائمة فى الخلف لا تكاد تستبين . أما فى هذا الكتاب فان مشاغل الحياة الدنيا تلعب دورها وتؤثر فى حياة الناس الذين يقومون بهذا الدور . فالثورة الصناعية لا تقتصر على أن يظهر دخانها القاتم على قطعة من القماش يقف أمامها الممثلون . وليست همهمتها وضجيج آلاتها، واجتماع العمال المتعطلين الذى يتضورون جوعاً فى منتصف الليل، ونداءات أبواق الجند، ليست هذه مجرد مناظر مصاحبة . ولكننا نجد البطل هو رجل مشترك فعلا فى هذا النضال، وأن مصير أشخاص آخرين يرتبط ارتباطا كبيراً بما يقع له من حوادث .

وليس معنى ذلك أن الصفات الخاصة بشارلوت برونتى قد أقصيت، لا ! هذا غير صحيح . إن هذه الصفات قد اندمجت فى شىء أكثر اتساعا، وهذا ما يجعل رواية « شيرلى » أسهل فى الفهم وأكثر اتصالا بمناظر الحياة عن الروايات الأخرى . فقصة « شيرلى » وحدها بين كتب برونتى التى ينطبق عليها كل الانطباق اسم القصة التى من عملها أن ترسم الهيئة الاجتماعية لنفسها وتطلعها على ما تقوم به . ومع ذلك ففيها جميع الصفات الأخرى، ففى « كارولينا هلستون » قوة الاحتمال الروحية، وفى « شيرلى » قوة الاحتمال الجسدية ؛ فهى مثل إميلى برونتى فى الحياة تكوى جرحها دون تردد، إذ يعضها كلب قد يكون مريضاً، بمكواة من الحديد المحمى بالنار . ونجد فى صورة كارولين الفكرة التى قامت عليها قصة سندريللا بعد أن غيرت شيئاً ما، ونجد هذه الفكرة وقد نقلت إلى الجنس الخشن فى صورة لويس مور، ونجد فوق ذلك مرة بعد أخرى ذلك التعارض، الذى لا تستطيع شارلوت إلا أن ترسمه، بين الحياة المادية والحياة الروحية . ففى ذلك المنظر الذى رسمته فى سواد الليل حين يتجادل مور وهلستون واللوذيون فيما بينهم عن « المال والطعام والحياة » نجد شيرلى وكارولين تنظران إلى ما فوقهما « وحيدتين مع الليل الصديق ونجومه الصامتة وأشجاره الهامسة » . ونرى فى صفحات الكتاب، كما فى سائر كتب شارلوت، تلك الصرخة اليائسة من أجل الحب — لا الحب المخيف الذى نجده فى قصة « مرتفعات وذرنج »، ولكن الحب الذى هو « فضيلة إلهية »، وهو « نار حية أتى بها من مذبح مقدس » وهو على أنه « أصدق وأبقى وأحلى . . . الأشياء التى نعرفها » هو أيضاً « أمرها مذاقا » .

لسنا بمنكرين أن مؤلفات شارلوت برونتى تحتوى على درجة من التعمل العاطفى، وعلى شىء من الاغراق فى الحزن والفرح، ولكن لا خطر فى ذلك الأمر الأخير ما دام التدفق الطبيعى يدفعه، وليس الغرض منه مجرد قشعريرة أبداننا . وإن ما يضايقنا شيئاً ما فى شارلوت برونتى هو المصادفات الغريبة المباغتة التى تفاجأ بها، كما فى شيرلى حين تتضابق لأن مسز برايور ظهرت على الصورة التى ظهرت بها أخيراً . وليس ثمة خطر من العاطفة عند ما تكون صادرة عن شعور صادق وموضوع العاطفة جديراً بها . ولكن إذا كان القصد منها تحريك مشاعرنا بغير ضرورة، وإذا كان لا علاقة لها بالقصة، بل هى تحول دون وضع تأثرنا فى موضعه الحقيقى، فان التذرع باثارة العاطفة لهو خطأ يدعو للأسف . وقد فرضت علينا الكاتبة مثل هذه العاطفة الخاطئة حين طلبت إلينا أن نذرف الدمع على موت جسى يورك قبل

ذلك بسنوات ، على حين كنا نحن فى تلك اللحظة على استعداد لمشاركة كارولين هلستون فى شكوكها المؤلمة فى أمر روبرت أهو سيأتى أم لا ؟

لقد ارتكبت شارلوت برونتى هذه الخطيئة ، خطيئة العاطفة المتصنعة ، أكثر من مرة ، ومع ذلك نراها تحذر الوقوع فيها . ولسنا نشعر أنها كانت تأتى هذا الخطأ عن عمد إرضاء لذوق الجمهور — وهو ما يقول به أكثر المفسرين — وقد نشعر بأن تحذيرها لقرائها بألا ينتظروا مواقف « غرام أو عاطفة أو شعر أو خيال » ولا مواقف « شهوة وتأثر واندفاعات قوية » إنما هو تحذير لنفسها بأن تبتعد عن كتابة هذه الأشياء بقدر ما هو تحذير لقرائها بألا يحاولوا البحث عن هذه الأشياء فى كتبها . ولقد كانت شارلوت فى حياتها صلبة تحاول أن تجرد نفسها من الأحلام الزائفة فى السعادة كما هو شأن لوسى سنو فى قصة « ڤيليت » ولكن الخيال الذى يأبى إلا أن يكون عوضاً عن هذا النزول لا يزال يبرز فى كتبها ، فاذا لم تكن هنالك مواقف الغرام لم يبق غير اليأس . لذلك نجد فى كتبها غراما وعاطفة وشعراً ، وكل الأشياء التى قالت لقرائها فى أول كتابها إنها لن تكتب عنها . إننا كنا نعجب كيف تحتمل الحياة الواقعة وهى تكتب هذا الكتاب لو لم ينطو كتابها على هذه الأشياء . ففى هذه الفترة مات أخوها برانول الذى كان عزيزا عليها ولكنه غير ناجح فى الحياة ، وماتت أختها إميلى التى كانت تعبدها ، وماتت آن التى كانت تحبها حبا عميقاً ، فالعالم الذى كانت تعيش وتناضل فى بطولة من أجله انهار من حولها ، ولكنها ظلت تسعى فى طريقها .

فليس من المستغرب إذن أن يكون هذا الكتاب أقل مرحاً فى نهايته منه فى مبدئه ، بل الواقع أنه ليس فى الكتاب من عبارات مرحة مثل العبارة التى ابتدئ بها : « لقد تساقط على شمال فرنسا فى السنوات الأخيرة مطر من القسس حتى كادوا ينطون سفوح التلال . . . » ومع ذلك ففى القصة حتى نهايتها شىء من الفكاهة سواء فى مجرى حوادثها المتقن أو فى نقدها الاجتماعى ؛ وهذا ما يجعل « شيرلى » قصة تشابه القصص العادية ؛ فقد كان القصصى ترولوب يستطيع أن يرسم حوادث آل يورك ولكنه ما كان ليستطيع أن يسير بها كما فعلت شارلوت . ولقد تعلم أكثر من كاتب بعدها أو منها كيف يصور القسس الثقلاء ومسز سيمسون المكروهة . ليست صورة روبرت مور مما يبعد عن متناول القصصيين ؛ فان أخطاءه نتيجة للضعف الانسانى العادى لا نتيجة للقوة كما هو شأن مسيو بول فى قصة « ڤيليت » ، ولا هى نتيجة لقوة العاطفة كما هى فى روتشيستر فى قصة « چين إير » . ولعل فى لويس مور من حسن الصورة ما يجعلها غير حقيقية . ولعل صورة شيرلى نفسها التى صورت فيها إميلى برونتى فى ظروف أسعد من ظروفها هى أقرب إلى صور المجامع الفنية منها إلى صورة مخلوق ذى لحم ودم ، غير أن مجموع الأشخاص فى تلك القصة اللذيذة المؤثرة سواء أرأينا مثلا لهم فى روايات الآخرين أم كانوا من خصائص تصوير برونتى يعيشون بقوة وصفات هى خاصة بهم . ومهما كان رأينا فى مؤلفات شارلوت برونتى إذ نمتدحها لسمو خيالها أو نرتعش لعمق تفكيرها أو لما تفتحه لنا من آفاق فيما وراء نظرنا العادى ، أو مهما أسفنا من جهة أخرى على ما فيها من نقائص ومن سقطات أحياناً أو إهمال للمشاعر اليومية فى الحياة ، فلا يمكن لأى إنسان أن ينكر ما فيها من موهبة أساسية ، بغيرها تكون جميع المزايا تافهة ، وهى التى تغطى على كثير من الأخطاء ، وهى موهبة الحيوية الكبيرة .

نقلها عن الانجليزية مبارك ابراهيم **بونامى دوبريه**